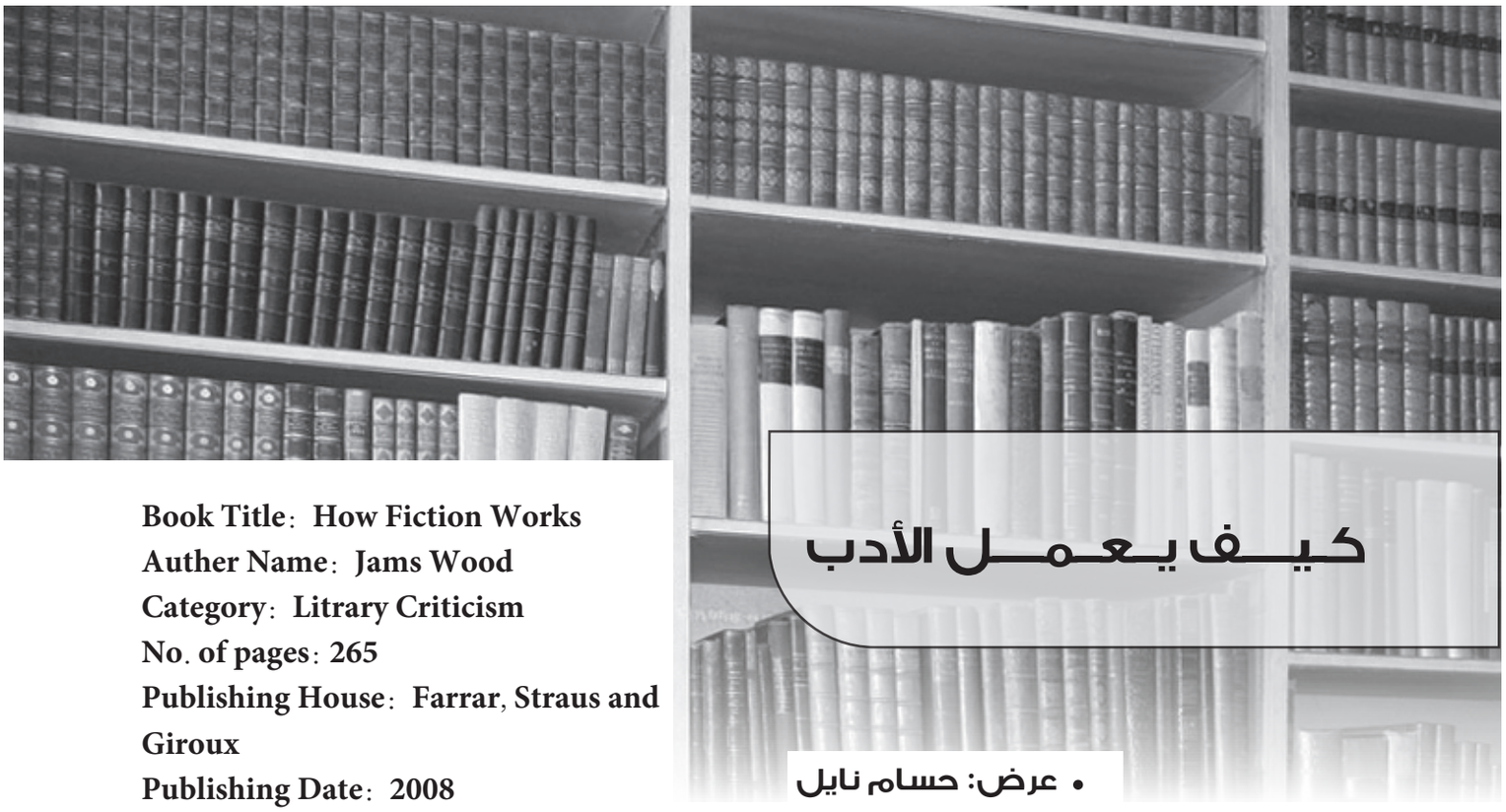

كيف يعمل الأدب

• عرض: حسام نايل

Book Title: How Fiction Works
Auther Name: Jams Wood
Category: Litrary Criticism
No. of pages: 265
Publishing House: Farrar, Straus and Giroux
Publishing Date: 2008

حين نقرأ عملاً أدبيًا واقعيًا نتساءل: هل هو واقعي فعلاً؟ وما سمات الشخصية وطبيعتها الخاصة التي تتصرف بمقتضاها في هذا العمل؟ وكيف يعمل الأسلوب المجازي بشكل ناجح حين يستخدمه المؤلف الأدبي؟ ومتى يصبح استخدام تفصيلة معينة

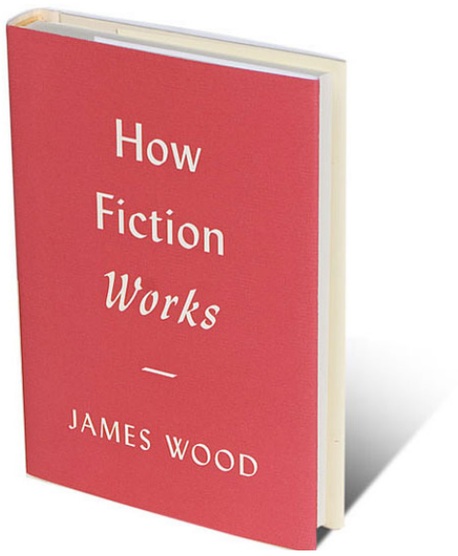

في العمل الأدبي استخدامًا مثيرًا للإعجاب؟ وما وجهة النظر في العمل الأدبي؟ وكيف تعمل؟ وما السبب في المشاعر العميقة التي نشعر بها بعد قراءة عمل أدبي عظيم؟

تعد هذه أسئلة تقليدية وقديمة، وبعض هذه الأسئلة تناولتها أعمال أكاديمية حديثة من ناحية، وعالجتها النظرية الأدبية من ناحية أخرى. غير أن جيمس وود- مؤلف الكتاب الذي بين أيدينا- يرى أن النقد الأكاديمي والنظرية الأدبية لم يقدما إجابات مناسبة عن هذه الأسئلة، وهو يرجو أن يجيب عن هذه الأسئلة في كتابه الحالي الذي يدور حول فن كتابة الأدب.

ولعله من المهم الإشارة إلى أن جيمس وود يعمل في مجال الكتابة الأدبية، ضمن فريق المجلة ذائعة الصيت ذانيو يوركر، كما يعمل محاضرًا زائرًا في الأدب الإنجليزي والأمريكي بجامعة هارفارد، وقد صدر له من قبل كتابان وعمل روائي.

يعتمد جيمس وود في كتابه إثارة أسئلة نظرية، ولكنه لا يجيب عنها نظريًا بل عمليًا، حيث يترك كُتَّاب الأدب أنفسهم يقدمون الإجابة العملية عن الأسئلة التي يثيرها.

وفي مقدمة الكتاب، يشير المؤلف إلى بعض الكتب التي سبقته في معالجة موضوع فن الكتابة الإبداعية والطريقة التي يعمل بها الفن عمومًا، وعلى سبيل المثال صدر كتاب صغير الحجم عام 1857م من تأليف جون روسكين بعنوان «عناصر الرسم»، وكان الغرض من الكتاب تقديم نصائح عملية للرسامين ومحبي الفنون الجميلة وعشاقها. وقد بدأ روسكين كتابه بأن طلب من القراء أن ينظروا إلى الطبيعة، ولنقل على سبيل المثال ورقة شجر، ثم يحاولوا نسخها على الورق بأقلامهم. وبدأ روسكين في الحديث عن اللون والظل فلفت الانتباه إلى الجدل بين الضوء والظل، وخطوة فخطوة تجول روسكين بالقارئ بين عمليات الخلق الفني وأساليبها. ويلاحظ جيمس وود أن مقدرة روسكين لم تأت من مهارته في الرسم التعليمي بل جاءت من قدرته

الفائقة على نقل ما يراه إلى فن الكتابة. ويذهب المؤلف إلى أن الكتب في هذا المجال قليلة، ولعل منها أيضًا كتاب إ.م. فورستر الذي صدر بعنوان «أشكال الرواية» في عام 1927م، غير أن هذا الكتاب– فيما يرى جيمس وود– يبدو في الوقت الحالي غامضًا وغير دقيق.

وفي الوقت نفسه، يبدي وود إعجابًا بثلاثة كتب أصدرها كونديرا حول موضوع فن كتابة الأدب، لكن كونديرا روائي وكاتب مقالات وليس ناقدًا أدبيًا، ومن الأفضل لنا أن نراه يكتب نصًا أدبيًا بدلاً من الكلام عن طرق عمل الأدب.

أما بخصوص النقاد الذين كتبوا عن فن كتابة الأدب فمن أفضلهم– فيما يرى المؤلف– الناقد الشكلاني الروسي فيكتور شكلوفسكي والناقد الشكلاني ما بعد البنيوي رولان بارت الفرنسي، والسبب أنهما اهتما بمناقشة الأسلوب الأدبي، والكلمات في النص، وشكلية النص، والاستعارة والخيال فيه؛ فتوصلا إلى مجموعة من النتائج تبدو عند جيمس وود مهمة، بينما يستحق بعضها الآخر المناقشة والجدل. ولذا، ينتهج المؤلف على طول كتابه– الذي بين أيدينا– نهجًا سجاليًا جدليًا؛ إذ يدخل في مناقشات مع هذين الناقدين الكبيرين.

ويتمثل السؤال الأساسي الذي يثيره المؤلف على النحو الآتي: هل الأدب صنعة بارعة وكفى، أم أنه من المحتمل أن يكون ما يقوله الأدب صادقًا وواقعيًا؟ وهل توجد مشكلة في النظر إلى النص الأدبي من خلال هذين المنظورين معًا؟ ومن أجل الإجابة عن هذه الأسئلة، يتخذ المؤلف من فلوبير نموذجًا لدراسته. وتنقسم الدراسة إلى عدد من الموضوعات المترابطة هي: السرد، فلوبير والسرد الحديث، التفاصيل في النص، الشخصية، تاريخ مختصر عن الوعي، العاطفية والتعقيد، اللغة، الحوار، الحقيقة والعرف والنزعة الواقعية.

ولعل من أهم مزايا الكتاب الوحدة المترابطة بين الفصول والقضايا التي يناقشها حيث نجد كل فصل ينساب ويتداخل مع الفصل الذي يليه؛ نظرًا لأن كل قضية يناقشها المؤلف تنشغل بالحس الجمالي نفسه السائد في الكتاب كله؛ إذ حين يتحدث المؤلف عن الأسلوب غير المباشر في العمل الأدبي فإنه يتحدث– في حقيقة الأمر– عن وجهة النظر، وحين يتحدث عن وجهة النظر فإنه يتحدث عن الوعي بالتفاصيل، وحين يتحدث عن التفاصيل فإنه يتحدث عن الشخصية، وحين يتحدث عن الشخصية فإنه يتحدث عن الواقع في العمل الأدبي؛ الواقع الذي يحتل– من وجهة نظر المؤلف– المنزلة العليا في مناقشته الأدب.

وأما عن فلوبير الذي يتخذه المؤلف منطلقًا لدراسته في السرد الحديث فيرى المؤلف أن على جميع الروائيين في أوربا أن يشعروا بالامتنان لفلوبير، بالطريقة نفسها التي يمتنّ بها الشعراء للروح التي تلهمهم قول الشعر؛ نظرًا لأن كل شئ في فن الرواية يبدأ مع فلوبير، الذي كان له الفضل الكبير في تأسيس السرد الواقعي الحديث، وتأثيره على فن كتابة الرواية ظاهر لا ينكره أحد. ففي أعماله الأدبية نرى نثرًا أدبيًا ممتازًا يعتني اعتناءً كبيرًا بالتفاصيل، فكل تفصيلة تأتي في موضعها، كما أنه يعطي أولوية للمشاهد المرئية، إذ يشعر القارئ كأنه يرى ما يقرؤه، ويرتبط هذا الاهتمام الكبير برغبة فلوبير في معرفة الحقيقة. ويشير المؤلف إلى أننا قد نجد شيئًا من ذلك عند كتاب آخرين سابقين على فلوبير من أمثال ديفو وأوستن وبلزاك، ولكن مع فلوبير نجد ذلك كله في كامل بهائه. ثم يضرب أمثلة عديدة على ذلك من رواية فلوبير الشهيرة «التربية العاطفية»؛ حيث يقوم المؤلف بتحليل بعض الفقرات تحليلاً فنيًا يثبت الرأي الذي يذهب إليه.

وفي الوقت نفسه، يقدم المؤلف تحليلاً لبعض المقاطع الأدبية من أعمال فلوبير تتضمن نوعًا من السخرية والمفارقة. ولعلنا نعرف جميعًا أن الواقع نفسه يتضمن الكثير من المواقف الساخرة، كما أنه يمتلئ بالمفارقة.

وفي ثنايا التحليل، يناقش المؤلف نظرية بارت التي يذهب فيها إلى عدم وجود طريقة واقعية نسرد بها العالم من حولنا. وعند هذا الموضع، يصل الكتاب إلى اللحظات الممتعة التي نرى من خلالها ناقدًا من جامعة هارفارد– جيمس وود– يدخل في جدل احترافي مع أقوى منظِّر أدبي عرفته فرنسا في النصف الثاني من القرن العشرين، ألا وهو بارت.

وفي النهاية، يمكن القول إن الكتاب يمثل إسهامًا مهمًا في موضوع فن كتابة الأدب، كما يعد من الكتب القلائل التي تدافع عن النزعة الواقعية في الوقت الذي يهتم فيه نقاد الأدب ونظريته بألعاب اللغة المعزولة عن الواقع، وبصفة خاصة في أعقاب الإسهامات النقدية ما بعد البنيوية والتفكيكية التي قطعت أواصر العلاقة بين لغة الأدب والواقع. ويحاول جيمس وود– من خلال هذا الكتاب– إعادة الثقة في هذه العلاقة بين الأدب والواقع مرة أخرى، بعد أن فقدها نقاد الأدب وبعد أن فقدتها النظرية الأدبية المعاصرة على حد سواء.